مسـرح العرائس

أعطني دمية أُعطِك طفلاً واعيـاً

حامد محضاوي
كاتب - تونس

ترتبط الدمية في ذائقة كل منّا بفترة من العمر، هي الأصدق والأنقى؛ مرحلة الطفولة، فالتواصل بين الدمية والطفل هو المحمل الذي رسم خطوات التفاعل مع الأشياء والأحاسيس واكتشاف القيم. تُعدُّ الدمية المحفّز الأوّل لملكات الطفل والمحاور الأوّل لخياله. تنطلق فكرة مسرح العرائس من هذه الرابطة، وتجعل من الدمى وسيلة تعبيريّة فنيّة تربويّة هادفة. باعتبار هذا، أحاول فتح نافذة على أهميّة العلاقة وانعكاساتها.

نشأ مسرح العرائس يوم وضعت صبيّة صغيرة قطعة من الخشب ودعتها «عروستي»

يجب أن تكون المسرحيّات أعمالاً فنيّة حقيقيّة وليست مفبركة

اللغة العربية المبسطة أفضل من اللهجات الشعبية وتضمن استمرار هذا الفن

لئن كان المجال لا يسمح بقراءة أكاديميّة - مغرقة في التفاصيل - فإنّني أستدلّ في صياغة هذه المقالة بما يراعي تلقّي الطفل والعائلة ومختلف الفاعلين في العملية التربويّة؛ من أجل إعادة الاعتبار إلى هذا الفن، وتأكيد فعاليته في تطوير ذائقة الطفل وتنمية قدراته.

نشأة المسرح العرائسي

لا يوجد تأريخ جامع مانع لنشأة فن مسرح العرائس. لكن لا تختلف المصادر على كونه فنًّا قديماً؛ ارتبط بحضور البشر منذ الحضارات القديمة. يُعدُّ أحد أهمّ الفنون الشعبيّة التي عرفها المصريون القدامى والصينيون والهنود الأوائل، وعرفها بعد ذلك اليونان. تواصل نسق تطوره «عبر الأزمنة» كفاعل حيوي في التعبير عن مشاغل الإنسان. في سياق حديثنا عن الطفل، لا نجد أكثر تعبيراً من قول فوزي سليمان: «إنّ هذا الفنّ يرجع إلى اليوم الذي وضعت فيه صبيّة صغيرة - بحنان ومحبّة - قطعة من الخشب فيها ملامح غامضة بشكل إنساني ودعت هذا الشيء «عروستها»؛ في هذا اليوم وُلدت أوّل عروسة.. هذه الصبيّة الصغيرة أعطت دميتها روحًا حيّة، أحاطتها بحبّها، وعكست عليها شيئًا كثيراً من مشاعرها، سعيدة أو حزينة، وكذلك عيوبها ومزاياها، وأحياناً لم تتمالك نفسها فمنّفتها على خطاياها الموهومة، وكأنّها ليست إطلاقاً قطعة من الخشب. ثمّ أخذت بين الحين والحين تهدهدها وتدلّلها وتأخذها إلى صدرها تدعوها إلى النوم، أو تحاول أن توقظها في حذر وعطف أمومي. تتحدّث إليها بحنان والعروس لا تجيب، فتخترع هي عنها الإجابة، ويقوم حوار مؤثّر وجميل، تتخلّله قبلات.. إنّه حوار من جانب واحد، لكنّه حلو للغاية، استمرَّ أجيالاً بعد أجيال حتى يومنا هذا».

يمكن القول أنّ مسرح العرائس - بشكله المعاصر - يُعدُّ نافذاً في مجال التربية؛ إذ إنّه من أبرز أنواع مسرح الطفل، ويعدّ شكلاً من أشكال الدراما «تمثّل فيه الدمى ذات الأشكال الصغيرة المدوّرة التي يتحكّم فيها من أسفل مباشرة بيد محرّك الدمى أو بعصا، أو تمثّل فيه الدمى من فوق المسرح بالخروج والأشكال».

أنواع مسرح العرائس

تبعاً للتطوّر الذي رافق علاقة الإنسان بالعرائس نتج تنوّع في مستوى اشتغالاتها. أصبحنا نتحدّث عن مسرح العرائس كأهمّ وسيلة تعليميّة فنيّة، هذا الدور تطلّب جملة تقنيات لإبلاغ رسالته، وبذلك نجد أنواعاً متعدّدة لمسرح العرائس أو الدمى، يمكن حصرها فيما يأتي:

- **مسرح العرائس القفّازية:** وهي دمى يُلبسها العارض إحدى يديه أو كلتيهما، وتعتمد حركتها على حركة أصابعه. يستطيع الطفل التدرّب عليها وصناعتها وتحريكها، وللاعب «الممثّل» أن يحرّك أكثر من دمية، كما يؤدّي أكثر من دور. يمكن للممثل

تغيير صوته والقيام بمشاهد كوميديّة بأصوات مضحكة. ويستخدم هذا النوع في المدارس لأنّه لا يحتاج إلى الكثير من الأدوات والمعدّات. قد ترافقه بعض الموسيقى وبعض ديكورات تدلّ على زمان ومكان القصّة.

• **الدمى أو العرائس ذات القائم:** هي دمى مسطّحة ذات أجزاء قابلة الحركة، وترتبط بسلط صلب كالذي يُستخدم في عمل المظلّات، أو تعتمد على عصيّ خشبيّة رفيعة مثبّتة على الذراعين أو الرأس.

• **مسرح خيال الظلّ:** «هي أشكال مسطّحة ومفصّلة تتّصل أجزاؤها بواسطة مفاصل تساعد على الحركات المطلوبة، وتصنع هذه الأشكال عادة من الورق المقوّى والرقائق المعدنيّة» ويُعدُّ هذا المسرح من أقدم الأشكال في المسرح العرائسي، يقوم على التحريك من خلف ستارة تسلّط عليها الأضواء الملوّنة من الخلف. يجلس الأطفال لمشاهدة ظلال العرائس وخيالاتها.

• **مسرح دمى الخيوط «الماريونيت»:** يعتبر من أهمّ تقنيات مسرح العرائس ثراءً من ناحية الإمكانات الفنيّة. تكون فيه العروس خشبيّة أو من القماش أو من الورق المضغوط، «تصنع بشكل يضمن لها الحركة الواسعة، وتكثر مفاصلها ويصبح من السهل عليها أن تتحرّك في كل الاتجاهات وبكل أطرافها وهي زاهية الألوان، لها ملابس كاريكاتورية التصميم، ولهذا المسرح ديكور تلعب من خلاله المناظر المسطّحة أو المجسّمة دوراً كبيراً؛ فهي تعطي تأثيراً إيجابيًّا ومكانيًّا يساعد على تيسير الإخراج، كما أنّ الإضاءة تلعب دورًا حيويًّا»

ما يجمع هذه الأشكال هو تنويع الأداء التعبيري، وبذلك تتناغم أبعاد الاشتغال في المسرح العرائسي مع خيال الطفل كي تخلق آثاراً نافذة في المستوى التربوي والتوعوي. هذه الأهميّة تتطلّب شروطاً ومعرفة كي يتحقّق الهدف من العروض العرائسيّة.

شروط عروض مسرح العرائس

• مـن المعـروف فـي علـم النفـس أنّ درجـات الفهـم تتفـاوت بيـن الأطفـال حسـب الأعمـار، كمـا يوجـد تناسـب عكسـي بيـن أعمـار الأطفـال ومقدرتهم على التخييـل؛ فمـا يثيـر ضحـك طفل فـي العاشـرة أو في الثانية عشـرة قد يستحيل فهمه بالنسـبة إلى الأطفال في سـنّ الخامسـة أو السـابعة، على هذا الأساس فإنّ مـن الضروري معرفة سـنّ الأطفـال قبل تقديـم النوع الملائـم لهم مـن مسـرحيّات العرائس.

• الأطفال الصغار - من الخامسـة حتّى السـابعة - تقدّم لهم مسـرحيات مبسّـطة، غاية في السـهولة واليسر، سـواء فـي أحداثهـا أم في أسـلوب حوارهـا. ولا تحوي مشـاهد هذه المسـرحيّات أيّة أفعال عنيفـة أو أقوال شريرة. بالنسـبة إلى الأطفال الأكبر سـنًّا يمكن تقديم مسـرحيات العرائس التي تحوي مشـاهد الصراع، ولكن بشـرط أن يكـون واضحـاً تمامـاً أنّ بطل المسـرحيّة لا يدخـل حلبـة الصـراع لأجـل المصلحـة الفرديّـة؛ وإنّما لنصـرة الخيـر «اسـتخدام الدمى هو وسـيلة يكتسـب مـن خلالهـا الأطفال عـدداً من القيـم الأخلاقية».

• تكون المسـرحيّات العرائسـيّة محبّبة لقلوب الأطفال من خلال اشـتغالها ضمن قوالـب كوميديّة، في متناول مداركهم ودرجات فهمهـم للأحداث والأقوال.

• يجـب أن تكـون المسـرحيّات أعمـالاً فنيّـة حقيقيّـة وليسـت مفبركـة؛ بمعنـى أن لا ينتهـز القائمـون بأمر العرائـس القصور الطبيعي في مـدارك الأطفال وضعف ملكاتهـم النقديّة، ليعرضـوا عليهم أعمـالاً لا فنّ فيها، قد تسـبّب مـن الضـرر أكثر ممّـا تثمره مـن النفع.

• مـن الناحيـة التكنيكيّة لمسـرحيّات العرائـس نجد أنّ التحليـلات النفسـيّة المعقّدة لا تتناسـب مـع طبيعة العمـل الفنّـي على مسـرح العرائس. في الوقت نفسـه يصعـب أن تكون في مسـتوى إفهام الـروّاد الصغار. من الواجـب لأجل هذا أن تكون الشـخصيّات التي تلعب على مسـرح العرائس على درجـة معيّنة مـن العموميّة، وأن تكـون نموذجيّة. هذا النـوع من الشـخصيّات يمكن أن يسـتند في بنائـه الفني إلـى القصص الخياليـة الرمزيّة وأبطال الأسـاطير الشعبيّة.

• يجـب عـلى الفنانيـن وهـم يقدّمـون عملاً عرائسـياً الابتعاد عن المحليّة، وأن يسـتخدموا فـي أثناء التأليف اللغة العربيّة المبسّـطة، التـي تتّفق مع قدرات الطفل، وأن يبتعدوا عن لهجاته الشـعبية؛ حرصـاً على هذا الفنّ مـن الاندثـار والتلاشـي؛ ذلـك لأنّـه يمـسّ احتياجات الطفـل فـي كلّ مكان، فـإذا كتب بلغة عربيـة معروفة كان مـن السـهل ترجمتها إلى اللغة المـراد التعامل بها.

• إعداد العروسـة ذاتهـا: تصميمها وتلوينهـا ثم عرضها عمل تربوي مفيد. إنّ ابتكار شـخصيّة العروسـة تستلزم تنميـة ملكـة الخيـال عنـد الطفـل، وكذلـك إعدادها يسـتلزم القيـام بعمليـة الرسـم والخياطـة والتلوين. يمكـن للمؤطـر أن يتبيـن فـي أثنـاء إعـداد اللعبـة المواهب والإمكانـات المتوافرة لدى كل طفل، سـواء كانـت يدويّـة أم تخييليّـة أم عقليّة.

بناء وعي الطفل

. المسـرح العرائسـي يعدّ مسـرحاً عالميًّا في فكرته، لـم يعـد يليق بنـا الإبقـاء على الأطفـال أمام شاشـة التلفـاز أو الحاسـوب انتظـاراً لبرامجه التي لا تتناسـب مـع أعمارهـم. يجـب فهـم مسـرح العرائس بمـا هو «طريقـة تربويّـة هادفـة تعنـى بالوسـائل السـمعيّة والبصريّـة ممّـا يتيـح مخاطبـة الأطفـال وعواطفهـم بأسـلوب ممتـع طريف».

. يبث المسرح العرائسي القيم الروحيّة والاجتماعيّة، التي تعدّ الطفل لاستقبال حياته العملية في الكبر، وهو محصّن بمجموعة من الخبرات التي يكتسبها بطريقة غير مباشرة.

. يؤثّر المسرح العرائسي في التكوين النفسي للطفل بما يجعله قادراً على التكيّف مع متناقضات المحيط الذي يعيش فيه، حتى لا يصطدم بجهامة الواقع.

. يلعب المسرح العرائسي دوراً مهمًّا في التربية الفكريّة للأطفال؛ فالطفل في سنواته الأولى تتكوّن ملامح شخصيّته من خلال تجاربه الخاصّة، فتتجدّد قدراته الفكريّة بمجالات الإدراك التي تتهيّأ له. إدراك الطفل للأشياء لا يأتي إلّا بالممارسة والعمل. هنا، يلعب مسرح العرائس دورًا جوهريًّا في تجسيد الأفكار التي تدور بذهن الطفل بشكل مشوش وخطأ، فيقوم مسرح العرائس بتصحيحها.

. يلقى المسرح العرائسي اهتماماً كبيراً من ناحية الطفل، وخلال جميع مراحل نموه، بمجرّد مشاهدة الطفل للعرض العرائسي تقوى ذاكرته وتصوّره للخبرات السابقة تمهيداً لاستدعائها. تنمو قدرته الخيالية وهذه القدرة لها دور كبير في بناء الأفكار والتجارب الجديدة.

. اندماج الطفل مع العرض المسرحي يوفّر له نوعين من التوازن: بين اتجاهاته العقلية والانفعالية والفكرية والحسيّة وبين الوعي واللاوعي. ويمكن أن تتحوّل بعض الدوافع الهدّامة لدى الأطفال إلى دوافع بنّاءة.

. يسهم المسرح العرائسي في تنمية الإدراك عند الأطفال: الإدراك البصري عن طريق الإحساس بحركة العروسة التعبيريّة وإيماءاتها وشكلها وحجمها ولونها الجذّاب. كما ينمو الإدراك السمعي عن طريق الموسيقى التصويريّة وكلمات الأغنية المناسبة للمشهد.

. يسهم المسرح العرائسي في تنمية مدركات الطفل، التي تعدّ ضرورة مهمّة في عملية تنشئته؛ فما لا شكّ فيه أنّ الثقافة عمليّة مهمّة في حياة الإنسان، حيث تلعب دوراً عظيماً في تغيير وجه المجتمع وبنائه، وإذا كانت الثقافة تعمل على تطوير عقليّة الإنسان وتعكس الأسلوب الذي تتشكّل به عاداته وسلوكه، وجب الاهتمام بتنمية عقليّة الطفل تنمية سليمة وكاملة من كل النواحي، ومسرح العرائس قادر على تقديم الثقافة للطفل.

آفات تتربص بأطفالنا

الاهتمام بإعادة الاعتبار للمسرح العرائسي خطوة فاعلة في سبيل مواجهة زحف مختلف الآفات التي تتربص بالأطفال. وفي الوقت الذي يفرض العصر الراهن بسطوته الاستهلاكية نسقاً من الفراغ القيمي والعاطفي والتوعوي؛ يجب علينا سد هذه الهوة عبر تجذير هذا النوع المسرحي في الاشتغالات التعليميّة والتنشيطيّة.